البرج العاجي

نيتشـــه والموسيقـــى

■ فوزي كريم

الذي يجهله معظمُ القراء العرب أن الفيلسوف الألماني الشهير "نيتشه" (١٨٤٤ - ١٩٠٠) كان، منذ صباه المبكر، شديدَ الحماس للموسيقى، والنشاط في العزف والتأليف. وفي مرحلة نضجه الفلسفي صار من أكثر كتاب الغرب إثارة في الشأن الموسيقي. بدأ دروسه على البيانو منذ الخامسة مع أمه، حتى صار يتقن عزف سوناتات "بيتهوفن" بمهارة. في صباه كان كلاسيكياً في المذاق، ويبدي ازدراءً لموسيقى المجددين والطليعيين، مثل الهنغاري "فرانس ليست" الذي استقر به المقام في النمسا، والفرنسي الرومانتيكي "بيرليوز". في الرابعة عشرة من العمر ألّف أعمالاً موسيقية تعمّد فيها النشازات اللحنية، معبراً عن "أكثر الأشياء حلكة وراديكالية عرفتُها في الموسيقى الغُرابية السحنة"، على حد تعبيره. ولكن "نيتشه" لم يصبح النموذج الموسيقي الذي كان يطمح إليه. وكلّ نتاجه من الموسيقى لم يتعد بضع أغنيات متأثرة بـ "شومان"، وبضع قطع على البيانو.

في مرحلة النضج الشابة هذه أصبح "نيتشه" أقربَ المقربين للموسيقي الألماني الأشهر "ريتشارد فاغنر" (١٨١٣-١٨٨٣)، ثم بعدها بسنوات لم تطُل كثيراً صار من أكثر أعدائه شراسة. بشأن هذه العلاقة صدرت كتب عديدة، لعل أولاها نص كتبه "نيتشه" ذاته بعنوان "نيتشه ضد فاغنر"، وكتاب المغني الباريتون الأشهر "ديسكاو": "نيتشه وفاغنر"، وكتاب البروفيسور الفرنسي جورج ليبير: "نيتشه والموسيقى"، وكتاب بينجامين مورتز: "الموسيقى وفكر فريدريك نيتشه".

التقى "نيتشه" بـ "فاغنر" عام ١٨٦٨، حينما كان يدرس "فقه اللغة المقارن" في جامعة لايبزغ. في السنة التالية أصبح "نيتشه" أستاذاً في بازل، وعلى مقربة من مسكن "فاغنر" في لوسيرن. ومنذ تلك السنة صارت زياراته له أكثر من لياقة ضيف طارئ. أصبح "نيتشه" جزءاً من العائلة الفاغنرية، وبصورة أدق، جزءاً ملحقاً لتنفيذ رغائب وحاجات ومطامح الموسيقي المتعجرف. في كتابه "مولد التراجيديا" كانت فلسفة "نيتشه" محاولة بعث لقيمة الاسطورة في حياتنا الروحية الحديثة. وخاصة الاسطورة اليونانية، التي تجسدت في الإبداع المسرحي التراجيدي. فيها وجد "الروح الديونيسية" الحارة، الغريزية، الغامضة، في مقابل "الروح الأبوللونية" العاقلة المولعة بالنظام والتوازن والضوء، والتي تجسدت في الأدب اليوناني الملحمي، والتي أعطاها شخص الفيلسوف "سقراط" معادلها الفلسفي العقلي. ولأن أوبرات "فاغنر"، ومعظم موسيقاه أوبرالية، كرّست قواها الإبداعية لسبر غور هذا العالم الداخلي، الغريزي، المعتم للإنسان، مستخدمة الأسطورة كبديل فني، أحس "نيتشه" بأن آماله الفلسفية معلقة لا على الإبداع الموسيقي وحده، بل على موسيقى "فاغنر" بالذات.

علّق آماله الحارة على أوبرات "فاغنر"، باعتبارها البشير لمولد التراجيدية اليونانية من جديد. مولد "الروح الديونيسية"، التي تعيد مجد الدرامي اليوناني "سوفوكليس" القرن السادس قبل الميلاد، وتعلّي من شأن القوى العصية على الإدراك، القاسية ولكن السامية للوجود (مقابل الروح الأبوللونية العاقلة). هذه "الروح الديونيسية" كانت قد خُنقت من قبل الفرضية السُقراطية، التي ترى أن "الفضيلة هي المعرفة، وخطايا الانسان وليدة الجهل، والفاضل وحده السعيد". ولقد اتهم "نيتشه" عصره "بهذه النزعة السقراطية المصممة على تحطيم الاسطورة. بحيث تركت الانسان المجرد من الاسطورة اليوم يقف جائعاً، محاطاً بكل عصور الماضي، نابشاً، منقباً عن الجذور..إن إعادة بعث الأبطال القدامى تنطوي على وعد بانبعاث روحي وقومي عبر سحر الموسيقى المتقد". من هنا وجد في "فاغنر" صانع الإسطورة، حتى طمع بخدمته في إدارة احتفالات مسرح "البايرويث" الخاص بموسيقاه.

ولكن سوء سلوك "فاغنر" اتجاه براءة "نيتشه"، وتحولَه من رجل رؤى الى رجل نساء، ووجاهة، وأوساط اجتماعية مصطنعة، وخاصة بعد أن حدث "نيتشه" عام ١٨٨٨، عن شروعه بآخر أعماله "بارسيفال" ذي الطقس الديني المسيحي، الذي انتزع سحر البطولة الوثنية السابقة، قطعَ آخرَ خيوط السحر التي أسرت الفيلسوف الشاب. بعدها كرس جهداً لدحض رؤى "فاغنر"، ووجد في أوبرا "كارمن" الشهيرة للفرنسي "بيزيه" بديلاً حاراً، مشبعاً بشمس المتوسط.

لم يعد الموت واحداً

شعر: موفق محمد

(إلى جاسم حسين الصكر)

موفق محمد

لا تُغمضْ عينيَّ
ودعني أكمل مرثيتَكَ يا جاسمُ
فمالكَ أرثي وتمحو؟
ما جدوى أن ترثيَ؟
والليل يطلقُ الرصاصَ على قمرهِ
الليل يطحنُ بالنجوم وبالعباد
الليل يقتسمُ البلادَ
والليل يبتكرُ السواد من السواد
×××××××
فاصلٌ ونعودُ
وطويلٌ فاصلكَ أيها الموتُ
انه الدربونةُ التي لن يخرج منها احدٌ
انه يخطفُ
عاصفاً يخطفُ
فجهنمُ تجريبيٌ هنا
وجهنمُ تجريبيٌ هناك
والشفلاتُ ينخى بعضها البعضُ
وهي ترى السماءَ تشقُ زُرقتها
لتغطي تـلالَ الأجسـاد المحـروقةِ في شوارعنا
فمن أي تنور يفورُ في صدور أُمهاتنا
تخبزُ الفضائياتُ أخبارنا
لتمطر على المشاهدين دماً ولحماً؟
أخي جاسم
دعني أُكملْ
فلقد حملتنا ما لا طاقةَ لنا به
فليس من السهل أن لا نرى المطر يبرقُ في جبينكَ
أن لا نرى العراق غافيا على غيومكَ
وأنت تمسّدُ نخيله وشطيه
وتُقبّلُ جراحهُ
وتزرعها في راحتيكَ
وتسقيها من البياض الذي يفيض في يديك
فيطير سربُ جراحٍ هنا وسربٌ هناك
وتهمسُ
رفقاً بالطيور فهي جراحنا التي تزقُّنا المحبةَ
لتغسل الحقد المحدودبَ في قلوبنا
دعني أُكملْ يا جاسمُ
ولا تمحُ سطراً
يا جاسمُ صبرا
أوَ لم ترَ الغيومَ تلوّن صدر الحمام دماً
وتنوح عليك
أوَ تسمع هديلها المثقلَ بالدموع؟
فليس من السهل أن لا نرى ابتسامتكَ في هذا الليل البهيم
سبعون عاماً طول هذا الليل
يا ليلُ
ويا عمر اهياليلُ
ويا ويلاه
(امصنكر علينه الليل
بكل روح اله ناب
ولابدَّ مايلكاك
وذابحي نخلها
فالحلةُ بعدكَ فاختةٌ تنوح بآلاف البلابل
المذبوحة في أشجارها
ونهرٌ يُلوّحُ بالشموع التي توقدها فيه
للصبايا وهن في طريقهن الى المدرسةِ
ولأمهاتنا ساعة الطلق وأنت في طريقك الى
مقام النبي أيوب
فبمن نلوذ بعدك يا جاسمُ
ولا طين ولا ماء إلا في نهركَ الذي أخذه
الموت بعيداً
كانت أمواجك تضيءُ مقبرة السلام
وتطفي ظمأها
(كلي شبقه من مات جاسم؟
ظلمه وتوابيت وحواسم)
×××××××
يا جاسمُ كنا نقرأ نشرة المطر في راحتيك
وأنت أعلمُ بالبرق الخُلب
وقد حذرتنا من الغيوم السوداء التي فتحت
علينا أبواب جهنم
فضعنا بالشتات
لم تُخطئ عينُك يا جاسمُ
لم تُخطئ عين الصقر الذي رأى كل شيء
فلم تُغنِ بذكره البلادُ التي خبّأها في عينيه
واحترق من أجلها
فيا جاسمُ
فإنك لو ضعتَ بين آلاف الموتى
فسأعرفك من النـاي الـذي يتوهـج في
شفتيك
ويُطوّحُ بآلامنا
فتفزُ القبور ندماً
يا جاسمُ إن موعدنا الخميسُ
أليس الخميس بقريب؟
وجئتنا والموت أقرب إلينا من حبل الوريد
فكيف لملمتَ ما بسّاقطُ من نفسكَ وأتيتَ؟
وأي ألم يعتصرُكَ وأنت تقف على جسدٍ غير
جسدكَ
لقد جئتنا لتكسر هيبة الموت فينا أيها المعلمُ
كنتُ أرى خيطاً من المطر والقمر يأتلقان في
جبينك
فينمو العشب في قدميك اللتين يدبُّ الموتُ
فيهما
كنت أسمعه وأبكي
والأمواج تتطايرُ هلعاً
أوَ ما رأيتَ الفراتَ ساعتها يقفُ على
رؤوس أصابعه
ليراك نوراً تأكله الظلمةُ في صبحٍ عسعسَ
في أرواحنا
فيموتُ بعينيكَ
كنا نلوذ بكَ
والرعبُ يقذف قلوبنا
كنا نراك بعيونٍ يتخثر فيها الموت
فتخجلُ من خوفنا وتُغادرُ
لا ندري أين تُغادرُ
أين تغادرُ؟
فمن يجمع الشظايا التي تتطاير من روحكَ
المحترقةِ شوقاً لعراقٍ لا يُشمّرُ فتيانه في
الارضِ الحرام أو المنافي
ولا يطشّرُ أطفاله في الإشارات الضوئية
وأرامله في مهب الخرافةِ
ولا أحدٌ يرى من القادمين الذين يخافون الله
كثيراً
لدرجةِ أنهم أحالوه على التقاعد
وبدأوا يحكمون بدلاً منه
وأين أنت الآن يا جاسمُ؟
فالمطر مسَّ أرض الحديقةِ فاهتزت ورَبَتْ
والأغصـان تتهجى اسمك على عشب
الحديقةِ بتبّاعة من ورد الرازقي
الأشجارِ بانتظارك
ولأنك لم تأتِ فقد نفضتْ اوراقها وثمارها
ونكّستْ أغصانها
أوَ تسمعُ نواحها وهي تلطم صدرها غارقةً
بالسواد
وتولولُ
(امزنجر كمرنه
ونجماته مو نجمات
امزنجر كمرنه
وطوّل صبحنه
ماظن يهده الحوت
طول صبحنه)..
×××××××
أيها المُتكلُ
الى أين تَنوي بنا؟
الى أين أيها الموتُ؟
أفلا يكفيك أنك القابلةُ المأذونةُ التي تلقفتنا
من أرحام امهاتنا؟
وأرتنا نجوم الحروب التي ملأت سماء
العراق
بعيون الشهداء التي تنثُ دماً
فإذا لم تُدلنا على الطريق الذي يُفضي الى
الحياة
إذاً دلنا على طريق لا يؤدي اليك
وتمهّل قليلاً أيها الموت
دعنا نأخذ نفساً
فمن نصف قرنٍ ولا كأس غير كأسك
وهذا السم الزعاف
وأنت تحدو بنا من جحيم إلى جحيم
(ايصير انت امضمنّه؟)
أم أن أحـداً من الإلـهـة الـذيـن يركبون
السيارات المظللة
ويفرون من الجحيم الذي وضعونا فيه
قال لك من وراء الحدود
(عينك ع العراقيين
اخذهم كباله
كل ألف ابفلس
وآني يمك)
وها أنت تعصف وتزمجرُ في أرواحنا
وأريتنا من الموت ما لم يخطر في بال
عزرائيل نفسه..
×××××××
يا ليل جئناك نتكئُ على أنفسنا
فما من عصىً تحمل ثقلك في أجسادنا
جئناك نسأل عن فتى الفتيان يحمل في
يديه
نخل العراق ورافديه
ويموت من أسف عليه
جئناك نسأل عنَ فتىً يعرف كل وحوش
الغاب الذي نحن فيه
فلقد أطعمها لحمه ودمه
هل خرجَ منك أم غاب فيك؟
وهل تسمع أنينه وهو ينبعثُ من سجنٍ الى
سجنٍ
ليرى العراق يُلوحُ للفقراء المطرودين من
جنتهِ
انهم لا يمتلكون غير الـ(آخ) التي تزرف
قلوبهم
فيغيبون في جحيم التنك
ولا أبواب في أحيائهم
والمسؤولون ينادونهم من وراء الفضائيات
(بويه الله ينطيكم
راتبه ميكفيش
ولوما الله والايفاد
مانكدر نعيش)
×××××××
باب من تطرق أيها الموت؟
جاسم حسين الصكر
هذا الذي سوّر المدينة بشجاعته
ووزعَ صبره وخبزته بين فتيانها
وكتب في مسلتها:
لا تجزعوا ان حطّ همُ
أو لفّنا ليلٌ أصمُ
ان العراق أبٌ وامُ
إننا نبكيك يا جاسمُ
لأنه لا يمكن لأحدٍ غيرك أن يكون جاسم
حسين الصكر
ذلك النبع الصافي الذي لا دغش فيه
والذي يعرف بأن الدنيا (بطرك عشره)
أنا الآن اسمعها بصوتك يا جاسم وأنوحُ
فلم تبقَ كحلة في جفن سمراء بعدك يا
جاسمُ
ولم يعد لحياتنا طعمٌ فلا قلب يتسع لضيمنا
غير قلبك الذي تبتسم ازهاره للقادمين من
المنافي
أو لمن بقي يُهرسُ بين نيوب الطغاة
وبساطيلهم
وقد كان قلبك بيتاً للمطر ولشقيقه الذي
كنت تسميه (مستر حالوب أبو اللوز)
وحين نسألك عن اللوز تقول:(هو الحالوب
يخلي لوز؟)
فمن نشّف ضرع العراق غير الحلابين
فنضحك
ويضحك المطر كثيراً وهو يطل علينا من
نافذة في قلبك
×××××××
باب مَن تطرق أيها الموت؟
موفق محمد احمد جواد ابو خمرة
لقد جئتُك باسمك الرباعي الذي حصلنا
عليه من سجلات الرفاق
فيا مرحباً بالموت في هذا الصيف الذي تفر
جهنم من جحيمه
يا مرحباً بكأسه وثلجه
ولستُ بآسٍ على حياةٍ لم أذق طعمها
وقد قاربتُ السبعين من هذا العمر المر
فلم أعد أحسب لك أي حساب
وإذا كانت لديك نيةٌ فتعال اليَّ الآن
لأموت مبتسماً في هذا الحفل الخصيب
حفل جاسم الصكر
الشجرة التي تُضيء